الاستسلام القومي صراعاً حازماً وقوياً فينبغي معارضة الاتجاه نحو الاستسلام الطبقي»١.

واذا كان هذا القول صحيحاً بالنسبة للصين ابان الحرب ضد اليابان ، فانه أكثر صحة ، قياساً على الواقع العربي الراهن ، حيث تفترس الامبريالية بواسطة انظمة عميلة توجهات الجماهير نحو التحرير القومي والتحرير الطبقي بصورة متسارية . واذا كانت موضوعة ماو ، في الصين بان الاستسلام الطبقي هو قوة احتياطية لنزعة الاستسلام القومي فان الاستسلام القومي في الوطن العربي ، بمعنى تكريس سيطرة طبقات الاقطاع والبورجوازية العميلة والمرتبطة بالاستعمار الكولونيالي او الامبريالي ، والمستفيدة من التجزئة والقطرية وشق الوحدة النضالية للطبقات العربية الكادحة في مختلف ساحاتها ، هو بدوره احتياطي يعمل لتعزية نزعة الاستسلام الطبقي .

ان ذلك كله يطرح سؤالاً لم تحسمه حركة المقاومة الفلسطينية بعد ، عما اذا كانت الانتفاضة الثورية الفلسطينية هي المدخل للثورة العربية ، او عما اذا كان من المطلوب لقضية التحرير الفلسطينية وجود مدخل ثورى عربي . والواقع أن جواب هذا السؤال ستفرضه الممارسات ، على ان مثل هذا الفرض لا يمكن أن يحدث اعتباطاً أو بالصدفة ولا بد من عمليات مراجعة نقدية مستمرة للعثور على الصيغة الأكثر فعالية . من الصحيح ان المقاومة الفلسطينية المسلحة تقدم مثالاً يومياً للجماهير العربية ،وهي في هذا المجال تقوم بالتحريض المباشر احياناً ، ولكنه من الخطأ الاعتقاد بان هذا النوع من «المثال اليومي» يشكل هدفاً كاملاً في حد ذاته ، اذ لا فرار من ان تصل التجربة نفسها الى نقطة تكون المطالبة فيها بالحسم أشد الحاحاً ، وربما على ذلك الحسم تتوقف القدرة على الخروج او عدم الخروج من المأزق .

اي مأزق ؟

إنّ من اللاثورية العجز عن رؤية مأزق المقاومة في هذه المرحلة ، والمضي في تجاهل هذا المأزق ، سواء عن طريق المعاندة ، أو عن طريق الركون الى « الحلول الاعلامية » . وفي اعتقادنا ان هذا المأزق يشكل الآن ، وسيشكل بصورة متزايدة وتصاعدية ، النقطة التاريخية التي يتوجب فيها على الثورة ان تحسم المسألة بجواب علمي ، وبحلول ثورية حقيقية . لقد بدأت حركة المقاومة المسلحة ، في صورتها الاكثر تبلوراً ، في اعقاب حرب حزيران ، ولا ريب ان الاحتلال ، والصدمة التي شكلتها الهزيمة السريعة ، قد أوجدت في المقاومة الفلسطينية المسلحة نوعاً من الرئة المعافاة في جو الاختناق الذي خيم في اعقاب الهزيمة ، ومع ذلك فانه فيما عدا واقع الاحتلال فقد كانت الظروف الموضوعية للثورة ما تزال دون مرحلة النضوج ، وكانت الاداة الثورية التي اندفعت لتأدية مهام الثورة ـ كمّا ونوعاً ـ دون القدرة على تأدية هذه المهام . ولا شك ان عوامل كثيرة هي التي ادت الى ذلك الواقع ، واذا كان من الظلم تحميل مسؤولية ذلك للحركة الوطنية العربية والفلسطينية وهدفها ووصم تجربتها بالفشل والعجز ، فانه من الظلم ايضاً تحميل مسؤولية هذا الواقع للانظمة العربية ذات الصفة البورجوازية الصغيرة وحدها ، فالمسؤولية في هذا المجال متبادلة ، وثمة حصة منها لكل طرف لا يجوز اسقاطها عنه.

---

(١) ماوتسي تونغ ـ الاعمال المختارة (بكين) المجلد الثاني ص ٩٣ .

ان التنصل هنا يوازي في خطورته الاتهام المرتجل من حيث انها يضيعان التقييم الذي يستطيع وحده ان يحدد أفق المستقبل والاسلوب النضالي فيه . على ان الاخطر من ذلك هو ان الانظمة البورجوازية الصغيرة التي فوجئت بالهزيمة ، وقوطع برنامجها العاجز قبل استكماله ، وتعرت كلياً أمام جماهيرنا ، وجدت انها تستطيع استخدام تأييدها لحركة المقاومة المسلحة بمثابة « ورقة التوت » على الأقل ، في نوع غير متوقع من الدفاع عن النفس : لقد ذكرنا أن وجود أنظمة عربية رجعية تلعب دور العميل المباشر للامبريالية كان من الاسباب التي منعت السقوط العملي للانظمة الوطنية ـ البورجوازية الصغيرة المهزومة اذ انها ظلت قادرة وسط ذلك الضياع على تمثيل شيء ما يجتذب الولاء العفوي للجماهير ، وادى ذلك الى اندفاعها لاقتناص المزيد من ذلك الولاء عن طريق التسابق في تأييد العمل الفدائي .

واتخذ هذا التسابق ، الذي حركته حوافز تكتيكية بالدرجة الاولى ، طابع الصخب والمبالغة الضجيج ، وأدى افتقار المقاومة الفلسطينية الى وجود حزب قوي وطليعي ومنتشر الى العجز ن استخدام ذلك الجو الفضفاض الذي احيطت به ، ونشأ عن ذلك خلل كبير في الصورة : فمن ناحية تندفع المقاومة الفلسطينية وسط جو لم تنضج فيه بعد الظروف الموضوعية لثورة في مستوى شعاراتها ، وبالتالي لا تتوفر فيه أدوات هذه الثورة في مستوى المهمات التي تتصدى لها ، ومن ناحية اخرى تحاط باطار واسع وفضفاض من الولاء الجماهيري تقف عاجزة عن تعبئته وتنظيمه . ولا ريب ان عجز وقصور الاحزاب العربية الوطنية ، والهزة المزلزلة التي ضربتها في حزيران (وهي اصلا منهكة من اعباء الانظمة العسكرية والانظمة الرجعية والانظمة البوليسية ، بالاضافة لامراضها الذاتية)، قد زاد في بلبلة الصورة في الساحة الفلسطينية والعربية على السواء . على ان ذلك كله لم يحل دون حدوث الاندفاعة الثورية الاولى ، التي عبأتها الاطارات المحدودة لحركة المقاومة آنذاك ، ومضت فيها بشجاعة الى ميدان القتال ، واستطاع هذا الاندفاع ان يفعل فعل السحر في الجماهير العربية في كل مكان الا ان مثل هذا السحر تظل معجزاته رهناً بقدرة الثورة على تنظيم مفعوله وتعبئته وفق استراتيجية ثورية واعية .

لقد وصلت هذه الاندفاعة الثورية الاولى الى ذروتها في معركة الكرامة في آذار ١٩٦٨ ، تلك المعركة التي أعطت مثالاً رائعاً على قدرة القوة الصغيرة غير المسلحة بالاسلحة الحديثة على مواجهة قوة كبيرة واصابتها في مقاتلها ، والتي الهبت الجماهير العربية والفلسطينية الى أبعد مدى ، ولكن هذه المعركة أيضاً ادت الى نتائج على الطرف الآخر ، طرف العدو : فهي من جهة نبهت اسرائيل الى ضراوة هذه الظاهرة التي استخفّت بها في البدء ،وهي من جهة ثانية نبهت الدول العربية ـ على مستويات مختلفة ـ الى الخطر الذي تشكله مثل هذه القوة الصاعدة ، ان هي استطاعت المضي الى مداها . وكان من نتائج ذلك أن طورت اسرائيل استراتيجية سياسية وعسكرية في مواجهتها للكفاح الفلسطيني المسلح ، وطورت الدول العربية ـ كل منها حسب حاجتها ـ خططاً تضمن لها « حدود أمن » خاصة بها . بالنسبة لاسرائيل قرر مهندسو الستراتيجية فيها أن « يتعايشوا » مع المقاومة ، وذلك عن طريق دفعها بالتدرج نحو الشرق ، بحيث تتمركز على الضفة الشرقية لنهر الاردن ، وعن طريق العمل ، بالبطش احياناً وبالرشوة حيناً ، على « تحييد » الضفة الغربية الى اقصى حد يستطيعونه ، بحيث تشكل في الأساس ـ وان شكلت مسرح عمليات صغيرة ـ حاجزاً بشرياً بين القوات الاسرائيلية على ضفة النهر